البناء العلمي

الحلقة الأولى

الشيخ الدكتور: راشد بن عثمان الزهراني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أيها الإخوة والأخوات، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، أرحب بكم في مجلسٍ من مجالس البناء العملي، وحلقةٍ من حلق الذكر، نجتمع فيها على معرفة كلام الله، وكلام رسوله الكريم، صلوات ربي وسلامه عليه.

ولعلي في بداية هذا اللقاء أن أذكر نفسي وأذكر إخواني بقول النبي -صلى الله عليه وسلم: «وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلون كلام الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله في من عنده»، وهذا فضل الله -عزَّ وجلَّ- نسأل الله أن يعطينا من فضله، وأن لا يحرمنا من جوده وكرمه، إنه -سبحانه وتعالى- جوادٌ كريمٌ.

أيها الأحبة، هذه الدروس التي أقدمها هي في شرح متن عمدة الفقه، للإمام الموفق ابن قدامة -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً-، والعلم الشرعي بشكلٍ عامٍ من أعظم القربات، وأجل الطاعات، التي يتقرب بها المسلم إلى ربه -سبحانه وتعالى-، فما تقرب عبد إلى الله -جلَّ وعلَا- بعد توحيده وأداء الفرائض بمثل ما تعبد به أهل العلم بتقربهم إلى الله -جلَّ وعلَا- بهذا العلم، تعلمًا وتعليمًا ونشرًا وبيانًا للحق الذي أخذه الله -جلَّ وعلَا- على أهل العلم، ولهذا نجد أن القرآن الكريم في آياتٍ كثيرةٍ يُبين الله -

سبحانه وتعالى- لنا فضل العلم، ومكانة أهله، والله -عزَّ وجلَّ- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يزداد، وأن تكون الزيادة من العلم، فقال -سبحانه وتعالى: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

ولما أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يختص من عباده من يشاء، اختص أهل العلم واستشهدهم على أعظم مشهودٍ، وقرن شهادتهم بشهادته -سبحانه وتعالى-، فقال -جلَّ وعلَا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

وقد جاء في الحديث الصحيح، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».

فإذا أخذنا بمفهوم المخالفة، معنى ذلك: أنه من لم يفقهه الله -عزَّ وجلَّ- في الدين، لم يرد به خيرًا، وقد جاء هذا في أثر ذكر بعض العلماء أن فيه ضعفًا، وهو أنه يُروى قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «ومن لم يُرد به خيرًا لم يبالِ به»، فطريق العلم هو طريق الأنبياء، هو طريق المرسلين -عليهم أفضل الصلاة، وأتم السلام.

وحملة العلم الذين ينشرونه بين الناس، ويُعلمون الناس كلام الله، وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-، هم ورثة الأنبياء، وكفى بهذا شرفًا، وكفى بهذا فضلًا، وكفى بهذا منزلةً.

وقد جاء في الحديث، عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- كما في سنن أبي داود، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»، فالذي يطلب العلم، ويسلك طريق أهله، فإنه يسلك طريقًا يوصله إلى جنات النعيم -بإذن الله عزَّ وجلَّ-، سواءً تتعلم عبر القراءة، أو تتعلم عبر هذه

القنوات الفضائية، أو تستمع إلى الذكر عبر مواقع الإنترنت ونحو ذلك، كل هذا سلوكٌ في طريق العلم، وهذا يحفِّز العبد أن يسلك هذا الطريق وأن يسير على هذا الدرب، حتى يكون نهايته -بإذن الله عزَّ وجلَّ- لمن أخلص علمه وعمله لله -عزَّ وجلَّ- أن يكون نهايته جنات عدنٍ ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ.

قال: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ».

فالعلم من أعظم الطاعات، ومن أجل القربات التي يتقرب بها العبد إلى الله -جلَّ وعلَا-، ولهذا ذكر العلماء -رحمهم الله- أن طلب العلم الشرعي أعظم قربةٍ عند الله -عزَّ وجلَّ- من صلاة النافلة، ويُروى هذا عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وعن عددٍ كبيرٍ من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أن من اشتغل بالفرض الكفائي الذي يُسقط الإثم عن الأمة، خير ممن يشتغل بعملٍ يخصه، فالعبادات متعدية النفع أعظم أجرًا، وأكثر عند الله -سبحانه وتعالى- من العبادات القاصرة، ولهذا كان طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

أيضًا جاء عن بعض العلماء، ومنهم الإمام النووي -رحمه الله- في تفضيل العلم على النافلة، قال: لأن العلم عبادة يتعدى خيرها، والنافلة عبادة قاصر خيرها، وهذا دليلٌ على فضل العلم ومكانة أهله.

طبعًا هذا لا يعني أن طالب العلم يكون عريًا عن أن يؤدي النافلة، وأن يكون قريبًا من الله -جلَّ وعلَا-؛ لأن العلم الشرعي، إذا لم يكن معه قُرب العبد من الله -سبحانه وتعالى- فإن صاحبه يضعف في علمه، ويضعف في مواقفه، ويضعف في فتواه،

وإذا لم يكن من الله عونٌ للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

أيضًا جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إذا مات ابن آدم» وأريدكم أن تحضروا الذهن مع هذا الحديث، وسأسألكم فيه، قال -صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

الإمام ابن جماعة -رحمه الله تعالى- في كتابه "تذكرة السامع والمتكلم"، يقول: وهذا من أعظم ما يدل على فضل العمل ومكانة أهله، من يبين لنا منكم؟ في هذا الحديث دلالة على فضل العلم ومكانة أهله.

{أنه إذا ترك علمًا ينتفع به، فإن عمله إلى قيام الساعة، تجري الحسنات إلى قيام الساعة}.

وهذا واضحٌ، قال: «أو علم ينتفع به». فيه شيءٌ آخر؟ ما ذكرته صحيح جزاك الله خير.

يقول ابن جماعة -رحمه الله: وأنت إذا نظرتَ في هذه الثلاثة، وجدتها في مُعلِّم الناس الخير، كيف ذلك؟ قال: قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ»، أعظم الصدقة على الإطلاق صدقة العلم، الإنسان حينما يبذل العلم للآخرين، وينشره بين الناس، فقد بذل خيرًا وصدقةً.

قال: «أو علم ينتفع به»، هذا واضحٌ.

«أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»، قال: قد لا يُرزق بعض العلماء بالأبناء، يكون عقيمًا، فيبقي الله -عزَّ وجلَّ- علمه بين الناس، فلا يذكره الناس إلا ويترحموا عليه، وهل هناك خيرٌ من أن يُذكر الإنسان في مجالس أهل العلم والتقى، فيقولون: رحمه الله؟.

شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً-، لم يتزوج، ولم يُرزق بالأبناء، ومع هذا لا يزال ذكره حتى يومنا هذا، كلما ذكرنا شيخ الإسلام ابن تيمية قلنا: رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، ورحم معه تلميذه ابن قيم الجوزية -رحمهما الله جميعًا، وعلى هذا فقس، لذلك قال: هذه الثلاثة هي مجموعةٌ في معلم الناس الخير.

أفضل العلوم، يقول ابن الجوزي -رحمه الله-، وتعرفون الإمام ابن الجوزي من الحنابلة المتعصبين للفقه، والفقه يقول عنه -رحمه الله تعالى: إنه من أشرف العلوم، علم الفقه قال: هو من أشرف العلوم، وإذا أردتَ أن تعرف فضل أمرٍ، فانظر إلى ثمرته، وثمرة العلم -علم الفقه- واضحةٌ، حينما تتفقه في دين الله -عزَّ وجلَّ- فإنك تعبد الله على بينةٍ وبرهانٍ، وعلى بصيرةٍ، وتسير في حياتك على وفق ما جاء عن الله، وجاء عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم- مثلًا في الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال في الحج: «خذوا عني مناسككم»، ولا يتم هذا إلا بأن يتعلم الإنسان العلم الشرعي الذي أمر الله -سبحانه وتعالى- به، وهذا من الأمور العظيمة التي توضح منزلة الفقه في الإسلام.

أيضًا ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- يقول: الفقه عليه مدار العلوم، فإن اتسع الزمان للزيادة من علمٍ فليكن من علم الفقه، وهذا والله من أشرف العلوم، ومن أحبها إلى النفس، تجد أن صاحب الفقه دائم التجدد.

شيخنا أو إمامنا الإمام الشافعي محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله تعالى- لما كان في العراق، كان له مذهبٌ، لما انتقل إلى مصر أصبح له المذهب الجديد، ليس في هذا طعنٌ في الإمام، بل هو دليلٌ على شرف هذا العلم؛ لأن الإنسان كلما اتسع أفقه، وازداد في هذا العلم، يكون له من الآراء ما لم تكن لديه وهو أقل من هذا الأمر، وهذا يدلك بالفعل كما ذكر الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- على شرف العلم، وأن الزمان إذا اتسع بالإنسان، فليكن من العلم، وسبحان الله علم الفقه من العلوم التي يقف الإنسان دائمًا أمامها كلما تعلم ازداد يقينًا أنه لا يعلم شيئًا، طرق الاستنباط، وأدوات الاجتهاد، والنوازل التي تقع، وتطبيق المعاصر على القديم، ونحو ذلك، كل هذا يقف الإنسان أحيانًا أمامه عاجزًا، ولهذا كلما أراد الإنسان أن يتسع أفقه في العلم، فليزدد من علم الفقه.

نختم كلام ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- بكلامٍ نفيسٍ، وهو يتحدث عن مكانة الفقه، ولعل ابن الجوزي -رحمه الله- بحكم الحملة الشرسة التي شنها المناوئون لمذهب الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- لأن البعض -كما سيأتي- لم يكن يعتد بمذهب الإمام أحمد بن حنبل كابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-؛ لأنه يقول: هو من علماء الحديث، وليس من علماء الفقه.

كان -رحمه الله- يبين أنه من أهل الفقه، لكن في هذا الحديث الآن الذي أسوقه لكم، يتحدث الإمام ابن الجوزي -رحمه الله- عن شرف العلم، فماذا يقول؟

يقول: الفقه عمدة العلوم، وإذا أردت أن تعرف منزلة الفقه، فانظر إلى منزلة الأصمعي في اللغة، وسيبويه في النحو، وابن معين في الرجال، ثم انظر إلى منزلة الإمام أحمد، والشافعي، ومالك، يتبين لك منزلة الفقه ومكانة أهله، ولو أن شيخًا مسنًا له

إسنادٌ لا يعرف الفقه، ومعه شابٌ يعرف الفقه، ثم طُرحت مسألةٌ، لتحدث الشاب، وسكت الشيخ. لماذا؟

لأن أحيانًا البعض يبالغ في دراسة علم الحديث، وهذا جيدٌ، لكن يكون على حساب معرفة المعنى، فلا يكون حظه من العلم إلا معرفة الأسانيد، دون أن يكون له معرفةٌ بالفقه، وبالمسائل، وبنوازلها، وبتطبيق هذه الآيات والأحاديث على الوقائع التي تحدث.

يذكر العلماء أن الأعمش –رحمه الله– سُئل مسألةً، فلم يكن عنده جوابٌ فيها، وكان في مجلسه النعمان بن ثابت، من هو النعمان بن ثابت؟ الإمام أبو حنيفة –رحمه الله تعالى–، فقال له: ما تقول فيها يا نعمان؟

قال: أقول فيها: كذا وكذا.

قال: ومن أين لك؟

قال: من الحديث الذي حدثتنا إياه، قال –صلى الله عليه وسلم–، ثم ساق الحديث.

فقال الأعمش: أحسنتَ، نحن الصيادلة، وأنتم الأطباء.

طبعًا هذا الأمر نذكره؛ لأن فيه فترةً من فترات التاريخ الإسلامي، حدثت حربٌ شرسةٌ ذكرها الخطيب البغدادي –رحمه الله– بين من يسمى بأهل الحديث، وأهل الفقه، أهل الحديث يقولون: الفقهاء لا يعرفون الصحيح من الضعيف، أهل الفقه يقولون: المحدثون يعرفون الصحيح من الضعيف، لكن يحملون أحاديث لا يفقهون منها شيئًا. ولو أن الأمة تكاملت لما حدث هذا الخلاف، دائمًا لا تطلب من الآخرين أن

يكونوا على ما أنت عليه، فأنت منَّ الله -عزَّ وجلَّ- عليك بأمرٍ، ليس شرطًا أن هذا الأمر لابد أن يكون في الأمة جميعًا، والآخرون كذلك، منَّ الله عليهم بأمرٍ، ليس شرطًا أن يكون فيك، فالأمة تتكامل، هؤلاء بمعرفتهم الحديث، وهؤلاء بمعرفتهم بالفقه، كما حدث بين النعمان بن ثابت، الإمام أبي حنيفة -رحمه الله-، وبين الأعمش، لم يكن هناك خصامٌ وجدالٌ، بل كان كل واحدٍ منهم يستفيد من الآخر في ما آتاه الله -سبحانه وتعالى-، وهذا الأمر يعيشه المسلم في حياته، ينبغي للمسلم أن ينظر إليه باستمرار في حياته، أن نكون متكاملين، ولا نكون متباغضين؛ لأن التكامل يجعل بيننا الألفة والمحبة، والتباغض يجعل بيننا الفرقة والخلاف.

الفقه أيضًا من العلماء الذين تحدثوا عنه، وأشادوا بمكانته ومنزلته، الإمام ابن القيم -رحمه الله-، حيث قال: أشرف العلوم، وأنفعها، علم الحدود، ولاسيما حدود شرع الله -عزَّ وجلَّ.

إذا ما اعتز ذو علم بعلم فعلم الفقه أولى باعتزاز
فكم طيب يفوح ولا كمسكِ وكم طير يطير ولا كبازي

طبعًا هنا بيانٌ لفضل الفقه ومكانته ومنزلته، صحيح العلوم مهمةٌ وعظيمةٌ، لكن علم الفقه، علم الحلال والحرام، من أعظم العلوم التي يشرف بها المسلم وتسموا بها روحه.

المسألة الأخرى، وهي من المسائل المهمة في علم الفقه، طبعًا نحاول في هذا اللقاء الأول نتحدث عن مقدماتٍ، تفيد طالب علم الفقه، المشايخ الآخرون يتحدثون، كل عالِمٍ يتحدث وطالب علمٍ منهم يتحدث عن مقدماتٍ في العلم الذي يقوم ويتولى تدريسه.

التفقه في دين الله، ذكرنا لكم شرفه وفضله ومكانته، كيف يكون طلب علم الفقه؟ ما الطريقة المثلى التي من خلالها يستطيع طالب العلم أن يكون فقيهًا؟

هناك مدارس، المدرسة الأولى، التي ترى أن الواجب أن تكون الدراسة مبنيةً على دراسة الحديث، لا على دراسة كلام الفقهاء، ويقولون: هذا الأصل؛ لأن الفقهاء كلامهم كلام بشرٍ، وكلام البشر يصيب ويخطئ، والواجب على الناس أن يرتبطوا بعلم القرآن والسنة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام، ويذكرون في هذا الآيات والأحاديث التي تدل على هذا المعنى، ولا شك أن هذا المعنى صحيحٌ، لكن لا يفوتنا أن مَن كَتَبَ كُتُبَ الفقه هم علماءٌ، وقد يكونون ممن يفوقوننا علمًا ومكانةً ومنزلةً، من انتقد كتب الفقه.

إذن الطريقة الأولى طريقة من يرى أننا إذا أردنا أن نتفقه يجب أن نترك كتب الفقه ومتونها، وأن نقبل على القرآن والسنة.

والقول الآخر، أو الطريقة الأخرى: أن تكون الدراسة هي مبنيةً على المذاهب، بمعنى المذاهب الأربعة التي استقر عليها العمل، هي مذهب الإمام أبي حنيفة، النعمان بن ثابت -رحمه الله-، ومذهب الإمام مالك بن أنس، ومذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني -رحمهم الله تعالى رحمةً واسعةً.

فإذا أراد طالب العلم أن يتفقه فعليه أن يبدأ بأحد هذه المذاهب، كما نفعل نحن الآن نأخذ في مذهب الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- متنا مختصرًا سهلًا للمبتدئين وهو كتاب مثلًا عمدة الفقه للإمام الموفق ابن قدامة المقدسي -رحمه الله رحمةً واسعةً.

هل معنى هذا أننا بهذه الطريقة نصرف الناس عن القرآن والسنة؟ نقول: كلا حاشا وكلا أن نصرف الناس عن كتاب الله وعن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه من

خلال النظر في أحوال العلماء نجد أن العلماء الذين بنوا أنفسهم على المتون الفقهية، أنهم أشد عودًا وأقوى في الفتوى، وفي النظر في المسائل من الآخرين الذين تشتتوا ببعدهم عن دراسة علم الفقه، ودراسة علم الفقه من الدروس الشريفة والعظيمة، فكوْن المسلم يأخذ مذهبًا من المذاهب الفقهية ويبدأ في دراسته فلا بأس بهذا، لأن من سيدرس لهم هم علماء أجلاء لهم مكانتهم ومنزلتهم، ولكن نجمع بين الأمرين: ندرس كلام الفقهاء والعلماء ولكن لا نتعصب لآرائهم وإنما يكون معرفتنا للمسألة بدليلها من القرآن ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

فلا نأتي نقول لا نحن بمعنى أننا ندرس الفقه معنى ذلك أننا نتعصب للرجال، نقول لا، الحق كما قال الإمام ابن القيم عن شيخ الإسلام قال: شيخنا وحبيبنا والحق أحب إلينا، فليس معنى أننا إذا خالفنا المذهب الحنبلي في مسألةٍ من المسائل أننا قد خرجنا عن الحق لا، الحق هو ما جاء في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

فمن أراد أن يتفقه في مذهبٍ من المذاهب الفقهية، مثلًا من أراد أن يدرس المذهب المالكي سواءً على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة أو مختصر خليل، أو غيرها فلا بأس بذلك، كذلك في مذهب الشافعي كتاب الإمام النووي –رحمه الله تعالى– منهج الطالبين أو كتاب متن الشيرازي –رحمه الله– كذلك في المذهب الحنفي بداية المبتدأ وغيرها، فكل هذا من الأشياء التي تساعد طالب العلم على ضبط المسألة، لماذا؟

سيأتي معنا في عمدة الفقه في شرح كلام الإمام ابن قدامه –رحمه الله– أنه قال في مقدمته، قال: جعلته على قولٍ واحدٍ ليسهل حفظه للطالبين وأيضًا حتى لا يتشعب ذهن الإنسان، أنت في بداية طلب العلم إذا ازدحمت عليك المعلومات تنسى لكن إذا بدأت العلم شيئًا فشيئا فإنك تصل في النهاية إلى مبتغاك، علم الفقه هذا حتى في

المسألة الواحدة خاصةً في عمدة الفقه سيأتي معنا أننا نأخذ مسألةً واحدةً، إذا كان المذهب هو الراجح ذكرنا الراجح بدليله، إذا كان المذهب مرجوحًا، والراجح مذهب الشافعي، أو الإمام مالك، أو الإمام أبي حنيفة، أو الجمهور أو نحو ذلك أخذنا بالراجح لكن دون بيانٍ ودون دخولٍ في تفاصيل الخلاف في هذه المسائل.

أفضل طريقةٍ بعد ما ذكرنا أن التمذهب في طلب العلم الشرعي على أحد المذاهب الفقهية الأربعة هو مما يقوي طالب العلم ومما يعينه على ضبط العلم الشرعي بمتونه وبأحكامه وبتدرجه في هذه الأحكام.

كيف سنعرض للمسائل؟

أفضل طريقةٍ إذا عرفنا أن الأخذ بأحد المذاهب هو من أفضل الطرق في دراسة الفقه، أفضل الطرق أولًا: أن تقرأ المتن، وكلام العلماء في هذه المتون لأن البعض يطعن في العلماء ويطعن في متونهم، ويقول مثلًا إن المتن الفلاني ليس فيه لا قال الله ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم، سؤال: هذا الكتاب وهذا المتن أليس جميع ما فيه أحكامًا مبنيةً على القرآن وعلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، والكلام المختصر يقولون الكلام إما أن يكون مختصرًا وهو ما قل لفظه وكثر معناه، وإما أن يكون فيه إسهابٌ وإطنابٌ وهو ما كثر لفظه وقل معناه.

العلماء في كتب المتون الفقهية ضبطوها ضبطًا محكمًا، لا تتوقع أن العالم أتى هنا وقال كتاب الصلاة وعندما انتهى قال كتاب الزكاة هكذا، لا هم كانوا يدرسونها دراسةً، لماذا نضع كتاب الصلاة بعد كتاب الطهارة، لماذا كتاب الطهارة والصلاة والزكاة والحج والجهاد في العبادات، وكتاب كذا وكذا في المعاملات، حتى الأبواب حينما يذكر بابًا ويأتي بعده بابٌ آخر مثل ابن قدامه -رحمه الله- ذكر في كتاب الطهارة أول ما ذكر

باب أحكام المياه ثم ذكر بعد ذلك باب الآنية، ثم بعد ذلك ذكر باب آداب قضاء الحاجة، كل بابٍ من هذه الأبواب يأتي مرتبًا، فليست القضية أن العالم يذكر هذه الأمور بدون نظرٍ، بدون استدلالٍ، هؤلاء علماء أجلاء بذلوا وقتهم وحياتهم في طلب العلم، فلا ينبغي أن ننظر نظرةً قاصرةً إلى علم الفقه ونُنفر الناس منه بحجة أنهم يقولون احفظوا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم،احفظوا صحيح البخاري، احفظوا صحيح مسلم، اتركوا حفظ المتون الفقهية.

وأتذكر أن الشيخ العلامة محمد بن عثيمين -رحمه الله تعالى- لما تحدث يومًا عن المتون الشرعية وقال بعبارته، قال: لما كنا صغارًا كاد بعضهم يلعب علينا ويقول لا تحفظوا المتون فإنكم لا تحتاجون إليها، قال: فلما بلغت إلى هذا السن الذي أنا فيه علمت فضل الله -جلَّ وعلَا- عليّ بحفظ المتون لأن المتون حفظها يبقي رؤوس الأقلام في كل علمٍ من العلوم في ذهن طالب العلم، وبهذا يستمر في طلب العلم.

أول الأمور في مسائل الفقه: تصور المسألة، لأن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، وكل علمٍ من العلوم له لغةٌ، مثلًا: الصحيح المشهور -كلمة المشهور- إذا أتيت عند علماء الحديث تجد أن له معنى، عند علماء مصطلح الحديث له معنى، عند الفقهاء له معنى، عند الأصوليين له معنى، فهذه لابد أن تعرف لغة كل علمٍ من العلوم التي تدرسها، فبالتالي لابد أن تعرف أصول كل مذهبٍ من المذاهب التي تدرسها، لابد أن تعرف المصطلحات إذا قيل في المذهب الحنفي، وبهذا قال الطرفان، وبهذا قال الصاحبان، وبهذا قال الثاني، وبهذا قال الثالث، إذا لم يكن لديك معرفةٌ بهذه المصطلحات لن تستطيع أن تفهم كلام المصنف الذي يذكره في كتب الفقه.

إذًا الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، تأخذ المسألة، وتصور المسألة يكون ببيانها، إذا كانت كلماتٍ غامضةً تُبين، وقد يكون تصور المسألة بذكر مثالٍ لها وكان من العلماء الذين يجيدون ضرب الأمثلة في الأحكام الفقهية شيخنا الجليل الشيخ عبد الله بن جبريل -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً- وهو العالم الذي أفنى جزءًا كبيرًا من حياته في الفقه دراسةً وتدريسًا، حتى كان -رحمه الله تعالى- يحفظ الكثير من المتون، وأتذكر أني سألته عن كتاب زاد المستغنى للإمام الحجاوي -رحمه الله- فكان -رحمه الله- يحفظه عن ظهر قلب، وكان الطلاب إذا حفظوا واخطأ أحد الطلاب في المتن يرد عليه الشيخ من حفظه، فيكمل الشيخ الباب كاملًا وهذا لا شك أن الله -عزَّ وجلَّ- قد أتاه حافظةً قويةً -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً-، نذكر هذا المثال لنتذكر الشيخ ونترحم عليه -رحمه الله.

إذا المسألة الأولى: تصور المسألة.

المسألة الثانية: أن تأخذ كل مسألة على حدةٍ، لا تخلط بين المسائل، لا تنتقل إلى المسألة الثانية إلا وأنت قد أدركت المسألة الأولى.

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان، يحدث عن نفسه يقول: كنت كل يومٍ أذهب إلى الشيخ أقرأ عليه واستفيد منه المسألة، فأعود إلى منزلي وقد وعيت ما ذكره الشيخ، يقول: في يومٍ من الأيام ذهبتُ إلى الشيخ وعدتُ إلى منزلي وبقي في نفسي لم أفهم، يقول: فدخلت إلى مكتبتي وأخذت أقرأ من الظهر إلى العصر ثم من العصر إلى المغرب ثم المغرب إلى العشاء ثم من العشاء إلى الفجر، يقول: فلما ظهر الصبح وإذا الله -عزَّ وجلَّ- قد جلَّى لي المسألة.

كم الوقت؟ من الظهر إلى العصر، من العصر إلى المغرب، من المغرب إلى العشاء، من العشاء إلى الفجر وهو يبحث في مسألةٍ واحدةٍ، ما قال هذه مسألةٌ لا تهم نتركها حتى نفرغ من بقية الكتاب، لا تنتقل إلى مسألةٍ إلا وقد استوعبتها وفهمتها، ولتعلم أنه في حال عدم استيعابك للمسألة أنك بحاجةٍ أن تنطرح بين يدي الله.

كان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إذا أغلقت عليه مسألة انطرح بين يدي الله وقال: اللهم يا معلم إبراهيم علمني ويا مفهم سليمان فهمني، ويكثر الإنسان من الاستغفار ومن القرب من الله -سبحانه وتعالى- حتى يجلي الله -عزَّ وجلَّ- له هذه المسألة.

إذا الأمر الأول: تصور المسألة.

الأمر الثاني: أن تأخذ كل مسألةٍ على حدة.

الأمر الثالث: أن تعرف المذهب.

أن تدرس في المذهب الحنبلي مثلًا في تقسيم المياه، يقول: المياه ثلاثة أقسامٍ: طاهرٌ وطهورٌ ونجسٌ، إذا هذا تصور المسألة أن تعرف ما هو الطاهر، وما هو الطهور، وما هو النجس، تأخذ كل مسألةٍ على حدةٍ ثم بعد ذلك تعرف المذهب، ثم بعد ذلك إذا كان المذهب هو الراجح تكتفي بهذا وتبين الدليل من القرآن والسنة، إذا كان المذهب مرجوحًا كما رجح العلماء -رحمهم الله- منهم شيخ الإسلام بن تيمية -رحمه الله- وعدد كبير من العلماء أن المياه على قسمين: ماءٌ طاهرٌ، وماءٌ نجسٌ، فتبين الراجح بدليله دون تفريعٍ ودون تفصيلٍ في هذه المسألة.

من أين لنا الدليل؟ لأن البعض يدرس الفقه بطريقة الحديث، وهذا خطأٌ منهجيٌّ في طلب العلم وفي تعليم العلم الشرعي، وهذه المسألة: مسألة أن هناك فرقًا بين تدريس

الفقه وبين تدريس الحديث، تدريس الفقه -كما ذكرنا- الخلاف والآراء وبيان مذاهب العلماء لا تكون في الفقه وإنما تكون عند دراسة الحديث، فتأتي بمسألة في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم هو: «الطهور ماءه الحل ميتته» تبين أقوال العلماء وآرائهم في تفاصيل المسائل التي تندرج تحت هذا الحديث.

الشيخ عطية سالم -رحمه الله- وهو من علماء المدينة، كان يتحدث حينما توفي سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- كان يتحدث عن منهج الشيخ ابن باز في الحديث، يقول: وكان يدرس في الجامعة الإسلامية كتاب عمدة الفقه ويدرس كتاب عمدة الأحكام، عمدة الفقه في الفقه وعمدة الأحكام في الحديث، يقول: فكان له منهجٌ هنا ومنهجٌ هنا وكان يدرس الأبواب بالتزامن، يدرس كتاب الطهارة هنا والطهارة هنا، الصلاة هنا والصلاة هنا، يقول: فإذا أتى في عمدة الفقه يدرس المسألة حسب ما جاء في المذهب ويبين الراجح بالدليل، وإذا أتى في درس الحديث يبين خلاف العلماء والآراء في هذه المسألة.

فهذا هو الأصل في تدريس علوم الفقه وفي تدريس الأحاديث، لو يأتي شخصٌ يقول: كتاب المغني لابن قدامة من كتب الفقه ومع ذلك فيه المسائل والتفاصيل، هذا الكتاب للمتقدمين في علم الفقه وهنا هؤلاء يسعهم الدخول في مسائل الخلاف واستيعابها.

الذي نريد أن نؤكد عليه أن طالب العلم في بداية طلبه للعلم يحتاج أن يشتد عوده وأن يكون قويًا صلبًا حتى يستطيع أن يستوعب هذه المسائل، طبعًا هذه الطريقة من العلماء الذين كان لهم حديثٌ واسعٌ في هذا الأمر معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ في عددٍ من دروسه خاصةً في طلب علم الفقه وطلب علم الحديث، كان يؤكد

على هذه المسائل، وهذه القضية تأخذ بالتلقي والممارسة عن العلماء في طريقتهم في تعليم العلم الشرعي، وبالتالي في المحصلة النهائية هذه الطريقة التي يستوعبها أكثر الناس، لكن قد يكون البعض لديه من الذاكرة ومن الحافظة ومن القوة ما يستطيع أن يدرس الفقه عن طريق دراسة علم الحديث، لكن بلا شك أن من يرى العلماء ويرى فتواهم وخاصةً من اشتغل بعلم الفقه يجد أنه أكثر انضباطًا وأقوى في تطبيق –خاصة النوازل المعاصرة على الأحكام الفقهية بسبب ضبط هذه المسائل.

كما تعلمون المسألة الأخرى طبعًا لدينا الآن موضوع المذاهب الأربعة، كما تعلمون المذاهب الأربعة: مذهب الإمام أبي حنيفة ثم الإمام مالك ثم الشافعي ثم الإمام أحمد، وهذه المذاهب الأربعة كان هناك مذاهب أخرى غيرها لكن لم يكتب لها الاستمرار، هناك أيضًا مذهب الإمام ابن حزم الظاهري وهناك مذاهب أخرى، لكن هذه المذاهب التي بقيت وتلقتها الأمة بالقبول، وأكثر عمل الناس الآن أهل السنة والجماعة على هذه المذاهب الأربعة.

هذه المذاهب الأربعة يجب أن يكون النظر فيها كما كان النظر بين الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، تعلمون في مرحلةٍ من مراحل تاريخ المسلمين، حدثت هناك نزاعاتٌ وخلافاتٌ شديدةٌ وكبيرةٌ بين المذاهب الأربعة، بل وصل الأمر إلى أنَّ أناسًا من متعصبة الحنفية يقولون: إذا كان قول الإمام يخالف القرآن والسنة يخالف السنة، فالسنة إما منسوخةٌ أو مؤولةٌ فيجعل الأصل كلام الإمام.

أيضًا كان بعض الشافعية يسأل: هل يجوز أن يزوج الرجل ابنته من الحنفية أو نحو ذلك، وهذه مرت في تاريخ المسلمين، في المملكة العربية السعودية قبل توحيدها كان في الحرم المكي أربعة محاريب، هناك محرابٌ للشافعية، محرابٌ للمالكية، محرابٌ للحنفية،

محرابٌ للحنابلة، وكان كل إنسانٍ يأتي من بلده يذهب إلى الحرم يذهب نحو المحراب الذي يأتم به، ثم بعد ذلك أتى الملك عبد العزيز -رحمه الله- فجمعهم على إمامٍ واحدٍ وحسنًا فعل، لأن جمع الناس في الصلاة أولى من تفرقهم بهذه الطريقة.

الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل يضربان لنا أروع الأمثلة في العلم، الإمام الشافعي كان كثير الثناء على الإمام أحمد بن حنبل، وكان يقول: يا أبا عبد الله إذا صح عندكم الحديث فأعلمني حتى أعمل به، هذا الإمام الشافعي يقول للإمام أحمد -رحمه الله تعالى.

الإمام أحمد بن حنبل كان يقول لأبنائه وتلاميذه: الشافعي كالشمس للأرض وكالعافية للبدن، هل الآن أتباع المذاهب يمكن لأحدهم أن يثني على شخصٍ من مذهب آخر بهذه الطريقة، يذكرون روايةً عن الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- أنه استضاف يومًا الإمام الشافعي في منزله، فقدم الطعام، فأتى الإمام الشافعي على الإمام جميعًا، والأكل بشراهةٍ بهذه الطريقة كان معيبًا عند أهل العلم، ثم لما أتى الليل أتى أبناء الإمام أحمد نام الشافعي في دار الإمام أحمد، فلما كان من الليل أخذوا الإبريق ووضعوه عند غرفة الإمام الشافعي حتى يقوم للوضوء لصلاته -صلاة الليل- فلم يقم لصلاة الليل، ثم بعد ذلك لما خرج لصلاة الفجر لم يتوضأ، لم يستطع أبناء تلاميذ الإمام أحمد أن يصبروا على هذا الأمر قالوا: يا إمام أنت تقول الشافعي كالشمس للأرض وكالعافية للبدن، التهم طعامنا ولم يصلِّ الليل وصلى الفجر بدون وضوءٍ.

دائمًا إذا أتاك خبرٌ تأكد، غالبًا الأخبار المشكلة من الرواة، المشكلة من الفهم.

وكم عائبا قولا ًسليمًا وآفته من الفهم السقيم

أتى الإمام أحمد للشافعي وقال: إنهم يقولون إنك أكلت الطعام جميعًا ولم تقم لصلاة الليل، وصليت الفجر بدون وضوءٍ، قال: يا إمام أما الطعام فلا والله لا أعلم أحدًا أكثر ورعًا منك، وأعلم أن هذا الطعام قدم لي أنه خالص الحل فأردت أن آكل منه، وأما صلاة الليل فأنا لم أصلِّ الليل لأني كنت أتدارس العلم، وقد استنبطت من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- «يا أبا عمير ما فعل النقير كذا وكذا من الفوائد»، ثم قال له: وما طلب العلم بأقل من صلاة النافلة بل هو خيرٌ منها، قال: وأما صلاة الفجر فأنا لازلت على وضوئي من صلاة العشاء. فأثنى عليه الإمام أحمد وذكره بخير.

مسألة أخرى في المذاهب: تعلمون الإمام الشافعي -رحمه الله- يرى القنوت في صلاة الفجر، بينما الإمام أحمد لا يرى ذلك، فصلى الإمام أحمد خلف الشافعي، فقنت الشافعي وأمن الإمام أحمد، لم ينصرف من الصلاة مع أنه يرى عدم جوازه، قالوا: يا إمام، قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه»، لا يجوز لي أن أنصرف من الصلاة لأني أرى هذا الرأي الفقهي لأن لدي حديث.

النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله «إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه»، فكان العلم يقرب العلماء بعضهم من بعضٍ كما كان بين الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد والإمام الشافعي، فكان بينهم هذا الانسجام العظيم في العلم الشرعي.

بالمناسبة لأهمية هذه القضية ذكرت عن طريق الموقع الالكتروني في صفحة الطلاب في البناء العلمي، قدمت مادةً تمت تسجيلها في استوديوهات الأكاديمية عن تاريخ الفقه الإسلامي، لأنك حتى تستطيع أن تستوعب الفقه لابد أن تعرف كيف نشأ هذا الفقه

الإسلامي، كيف نشأت المذاهب الأربعة، والمناسبة بشكلٍ عامٍ دائمًا إذا أردت أن تستوعب علمًا من العلوم لابد أن تفهم مدخل العلم، كيف نشأ هذا العلم.

اضرب لهم مثلًا: العقيدة واضحةٌ في القرآن وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن حينما تقرأ في كتب الاعتقاد يدخل لك كلامٌ عمن يُسمى بأهل الكلام، هؤلاء أهل الكلام كيف نشئوا، إذا لابد أن تعرف الفلسفة اليونانية ثم بعد ذلك تعرف الفلاسفة المنتسبين للإسلام، وحركة الترجمة التي حدثت، وتعرف ابن سينا وماذا قدم والتنبيهات ونحو ذلك، وابن رشد وغيرهم ثم بعد ذلك كيف كان لهؤلاء الأثر في نشوء علم الكلام من خلال القانون الكلي للرازي وبعض القضايا التي قدموها.

بهذه الطريقة تستطيع أن تستوعب علم الكلام وتستطيع أن تفهمه، وهو الأهم أن ترد عليه حتى تثبت نفسك وإخوانك على المنهج السلفي الصحيح المبني على عقيدة أهل السنة والجماعة، طبعًا هذه المادة موجودةٌ في الموقع الالكتروني.

هذا الكتاب -عمدة الفقه- ينتمي لأي مذهبٍ؟ ينتمي لمذهب الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، الإمام أحمد بن حنبل من علماء أهل السنة والجماعة، ولد في بغداد سنة 164، توفي سنة 241، عاش -رحمه الله- سبعة وسبعين سنة، تلقى العلم على عدد كبير من العلماء، منهم يحيى بن نعيم، وإسحاق بن راهويه، وعبد الرزاق الصنعاني وغيرهم من أهل العلم، وبرز نجمه -رحمه الله تعالى- في علم الفقه وفي علم الحديث، وحدث له الامتحان الكبير المعروف بفتنة خلق القرآن والتي انتهت بانتصار الله -عزَّ وجلَّ- لعباده المؤمنين وبيان الحق للخلق بعد ثبات هذا الإمام، في القصة المشهورة والمعروفة.

الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- يتميز مذهبه أنه آخر المذاهب، بمعنى: أن الإمام -رحمه الله- استوعب المذاهب السابقة، مذهب الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والشافعي، استوعب هذه المذاهب وهذه المدارس وأتى -رحمه الله- متأخرًا، وغالبًا أن من يأتي متأخرًا ويكون لديه علم الفقه وعلم الحديث يستطيع أن يسد النقص الذي كان قبله، وأن يستدرك ما فات العلماء من قبله -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

لكن لا يعني هذا أن كل المسائل التي ذكرها الإمام أحمد هي الراجح وإن ما ذكره الأئمة من قبله مرجوحٌ، والدليل أنه سيأتي معنا في بعض المسائل أننا نرجح مذهبًا آخر غير مذهب الإمام أحمد -رحمه الله- لأننا مطالبون بالدليل، بالنص، من كتاب الله ومن سنة النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام.

الإمام أحمد له أصولٌ في مذهب، فهو يأخذ بالقرآن ويأخذ بالسنة، ولا يفرق بين المتواتر والآحاد فيها، بل ما صح فهو المذهب الذي يذهب إليه -رحمه الله- كذلك يأخذ بأقوال الصحابة -رضوان الله عليهم- ويأخذ بالمراسيل -الأحاديث المرسلة- يأخذ بها كذلك -رحمه الله- وكل هذه التفاصيل قد بيناها في السلسة التي تحدث عنها في مدخل إلى علم الفقه.

الإمام أحمد -رحمه الله- مذهبه من المذاهب التي ظُلمت في فترةٍ من فترات التاريخ، حتى أن الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله- في حديثه عن الخلافيات لم يذكر الإمام أحمد -لم يذكر المذهب الحنبلي- ولما سأل عن هذا قال: أحمد إمامٌ في الحديث وليس بإمامٍ في الفقه، وهذا لا شك أن هذا قولٌ غير صحيحٍ، الإمام أحمد من علماء المسلمين فقهًا وحديثًا، وعلى هذا النسق صار النسفي -رحمه الله- وصار الطحاوي -رحمه الله- وصار الغزالي في الوجيز وغيرهم، لكن الذي انتهى إليه الأمر أن مذهب

الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- هو مذهبٌ فقهيٌّ معتمدٌ، وأن إمامة الإمام أحمد -رحمه الله- في الفقه لا يشق لها غبارٌ، فهو من أئمتهم ومن رموزهم، واهتمامه وعنايته الشديدة بعلم الحديث ليس معنى ذلك عدم إدراكه الشديد لعلم الفقه -رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً.

لماذا لم ينتشر، أو لماذا انتشار مذهب الإمام أحمد أقل من غيره؟

العلماء يعيدون هذا إلى عدة أمورٍ: ابن خلدون -رحمه الله- ذكر أن بعضهم يذكر أن من الأسباب الشدة التي في مذهب الإمام أحمد، وهذا غير صحيحٍ، في المذاهب الفقهية الأخرى من الشدة ما ليس في مذهب الإمام أحمد، حتى تجد في بعض الدول إذا رأوك تعمل بالسنة يقول لك أنت حنبليٌّ على سبيل السخرية والاستهزاء وهذا غير صحيحٍ، الذي جعل هذا المذهب لا ينتشر كالمذاهب الأخرى هو ما ذكره ابن بدران -رحمه الله- وهو: أن علماء هذا المذهب يميلون إلى التخفي وإلى الورع وإلى العبادة وهذا ما ساهم في عدم انتشاره بشكلٍ واسعٍ كغيره من المذاهب، لكن في الآونة الأخيرة انتشر المذهب بفضل علمائه الكبار -رحمهم الله تعالى رحمةً واسعةً ورحم الله أئمتنا الأربعة- الإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام مالك والإمام أبي حنيفة، وجزاهم الله -عزَّ وجلَّ- عن المسلمين خير الجزاء.

لعلنا نكتفي بما تقدم، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- بمنه وكرمه أن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين.

وإن شاء الله من لديه سؤالٌ أو استفسارٌ -بإذن الله من خلال الفصول الافتراضية التي سيظهر الجدول الخاص بها من خلال الموقع، نلتقي بإخواننا الطلاب في هذه الفصول ونجيب على الأسئلة والاستفسارات، ونسأل الله -عزَّ وجلَّ- التوفيق والسداد.

شكر الله لكم، واسمحوني ما أعطيتكم وقت للأسئلة، لكن -إن شاء الله - في اللقاء القادم نأخذ هذه الأسئلة.

جزاكم الله خيرًا وشكرًا لإخواننا المتابعين والمشاهدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.